



قصة القس الأمريكي الذي تسبب في مذبحة روعت العالم

**

منذ نحو أربعة عقود كان القس الأمريكي جيم جونز قائداً جذاباً مؤثراً يقود طائفة أمريكية في أدغال غيانا وأسس مذهب معبد الشعوب وأمر أتباعه بقتل عضو في الكونغرس الأمريكي ثم المانتحرار جماعياً بشرب عصير فواكه ممزوج بمادة السيانييد المسامة. وحسب صحيفة Guardian البريطانية فقد كانت هذه الواقعة التي أُطلق عليها مذبحة جونز تاون هي أكبر حادثة وفاة مدنيين متعمدة في التاريخ الأمريكي قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر. إذ مات فيها أكثر من 900 شخص من بينهم العديد من الأطفال. وشكلت كذلك صدمة ثقافية مدمرة إذ شهدت نهاية آخر بقايا ذوع معيّن من مثالية الستينيات وتطرف السبعينيات في القرن الماضي. وما زال إرث جونز تاون حيّاً في العبارة الساخرة Aid-Kool the drink التي تنصح بعدم الثقة العمياء (لم يكن ما شربوه مشروب (المناضس Flavor aid مشروب لكن Kool-aid).

من هو القس الأمريكي جيم جونز مؤسس كنيسة معبد الشعوب؟
صحيح أن القس الأمريكي جيم جونز أصبح رمزاً للجانب المظلم من الثقافة المضادة في الساحل الغربي الأمريكي لكنّه وُلد فرداً في عائلة فقيرة بولاية إنديانا. وكان جونز الذي وُصف في طفولته بأنه ذكي وغريب منجذباً انجذاباً غريزياً إلى الدين لا سيما التقاليد المسيحية المجذابة مثل طائفة الخمسينية. واكتسب خبرة منذ صغره في الوعظ العام وكان مؤيداً متحمساً للمساواة العرقية مع أن ذلك كان شيئاً غير معتاد آنذاك في ذلك المكان.
جذب مزيج جونز الغريب من المسيحية الإنجيلية وروحانية العصر الجديد والعدالة الاجتماعية المتطرفة أتباعاً متحمسين. وقد أطلق جونز على كنيسته الناشئة اسم معبد الشعوب. □ □
ومع أن أتباع القس الأمريكي جيم جونز صُوروا في وقت لاحق على أنهم أشرار ومُغفلون فإن الصحفي تيم ريتزمان يقول في كتابه الذي يناقش هذا الموضوع بعُمق إن الكثيرين منهم كانوا أناساً محترمين مجتهدين في عملهم ذوي وعي اجتماعي وبعضهم مثقف جداً مضيفاً أن هم أرادوا مساعدة إخوتهم البشر وخدمة الرب وليس عبادة شخص نصب نفسه إلهاً على الأرض.
كان مذهب معبد الشعوب يؤيد الاشتراكية والعيش الاجتماعي وكان يطبق الاندماج العرقي إلى درجة لم تضاهه منذ ذلك الحين. وفي عام 1965 عندما كان جونز في منتصف الثلاثينات من عمره أمر بنقل معبد الشعوب إلى كاليفورنيا. وابتعد عن التعليم المسيحية التقليدية واصفاً نفسه بعبارات مسيحية وزاعماً أنه تجسّد جديد لأرواح شخصيات مثل المسيح وبوذا. وادّعى كذلك أن هدفه الدائم هو الشيوعية وفي تحريف بسيط لمقولة أن الدين هو أفيون الشعوب كان الدين مجرد وسيلة له لجعل الماركسية أكثر قبولا.
وبحلول السبعينيات من القرن العشرين اكتسبت طائفة معبد الشعوب -تتخذ الآن من سان فرانسيسكو مقراً لها- نفوذاً سياسياً كبيراً.

إذ أدّى دفاع القس الأمريكي جيم جونز المشرس عن المضطهدين إلى إعجاب بعض الرموز اليسارية مثل أنجيلا ديفيس وهارفي ميلك به وأكسبه دعم جماعات مثل الفهود السود وقد كان ذلك تقارباً سياسياً مُضِلّاً للغاية نظراً إلى أن أكثر من ثلثي ضحايا مذبحه جونز تاون كانوا أمريكيين من أصول إفريقية.

ووفقاً لما ذكره الصحافي الأمريكي ديفيد تالبوت في موقع Salon الأمريكي فإن أحد أسباب نجاح مذهب معبد الشعوب هو أنه كان مفيداً على الصعيد السياسي إذ قال تالبوت: كان يمكن الاعتماد على جونز لإيصال حاضلات مليئة بأتباع مطيعين ومهذمين إلى مظاهرات وحملات انتخابية ومناطق سياسية.

جانب شرير في مذهب معبد الشعوب

ومع ذلك كانت هناك علامات بالفعل على وجود تيار شرير كامن في مذهب معبد الشعوب. إذ كان يُطلب من أتباع المذهب تكريس أنفسهم تماماً لمشروع الكنيسة الطوباوي فكانوا يُسلمون ثرواتهم الشخصية ويعملون ساعات طويلة بلا أجر لحساب الكنيسة وكثيراً ما كانوا يقطعون الاتصال بعائلاتهم.

وكان يُطلب منهم كذلك تربية أطفالهم داخل صفوف أتباع المذهب. وبحجة إظهار الالتزام كان يُطلب منهم التوقيع على شهادات زائفة بأنهم تحرشوا بأطفالهم وقد احتفظت بها الكنيسة لابتزازهم عند الحاجة.

وقال الروائي الإسباني شيفر نيبول الشقيق الأصغر لفيديادور سوراجبراساد نيبول في دراسته التي أجراها في عام 1980 عن جونز تاون إن مذهب معبد الشعوب كان في جوهره مشروعاً دينياً أصولياً مهووساً بالخطيئة وصور الدمار المشؤوم والاستبدادية في دوافعه الداخلية ويُفكّر غريزياً بمنطق المُبشّر بالنعيم والمُنذر بالهلاك.

وكما كتب نيبول فالنتيجة لم تكن عدالة عرقية ولا اشتراكية بل محاكاة مسيحية ساخرة لكليهما.

ما جعله ينقل كنيسته إلى أدغال أمريكا اللاتينية

كان القس الأمريكي جيم جونز الذي لطالما اعتقد أن الولايات المتحدة مُهددة بمحرقة ذووية وشيكة يبحث عن مكان حيث تكون كنيسته آمنة في أثناء حدث مُهلك.

وعندما نُشرت مقالة تزعم حدوث إساءة في كنيسة معبد الشعوب اضطر جونز إلى الانتقال فاختر غيانا وهي مستعمرة بريطانية سابقة في أمريكا الجنوبية كان نظامها الاشتراكي متعاطفاً مع كنيسة جونز على المستوى السياسي.

وفي عام 1977 نقلت كنيسة معبد الشعوب مقرها إلى منطقة ذاتية في أدغال غيانا. وقال جونز إنهم قادرون هنا على بناء مجتمع طوباوي دون تدخّل حكومي أو إعلامي.

وفي مواجهة مناخ استوائي شاق وموارد محدودة بدأ سكان جونز تاون في تحويل الغابة الكثيفة إلى مجتمع زراعي عامل سرعان ما عُرف باسم جونز تاون.

وكانت الكنيسة تنقل خواطر جونز الفردية المخرفاء إلى أفراد جونز تاون بِمُكَبَّر صوت في أثناء عملهم. وفي المساء كانوا يحضرون دروس تبشير إلزامية. وكانت أوامر جونز تُنفذ على يد حُرّاس مسلحين يحملون اسم Brigade Red أو اللواء الأحمر.

لم يكن هناك سبب يدفع جونز تاون إلى توقّع أي تدخّل من غيانا التي كانت جمهورية تعاونية تحت قيادة حكومة تتجاهل بسرور علامات العبادة الاستبدادية والمصاوبة بجنون الشك.

ومع ذلك ففي الولايات المتحدة كان آباء أفراد جونز تاون -الذين كانوا يشعرون بالقلق إزاء الخطابات الغربية التي كانوا يتلقونها من أبنائهم أو عدم وصول أي خطابات إليهم- يضغطون على الحكومة الأمريكية للتحقيق في الأمر.

وبعدما فازت أسرة في الولايات المتحدة بأمر حضانة أحد أطفال جونز تاون تصاعدت حالة جنون الشك. وأصبح مجتمع الكنيسة معسكراً مسلحاً يحيطه متطوعون مدججون ببنادق وسواطير مهذمين بمحاربة الغرباء حتى الموت.

أي محاولة من كشف حقيقتهم كانت محفوفة بالمخاطر

وفي أثناء هذا الحصار (المتخيّل) تحدّث هيوي نيوتن أحد مؤسسي حركة الفهود السود وأنجيلا ديفيس إلى سكان جونز تاون عبر جهاز لاسلكي للتعبير عن تضامنهما معهم.

إن قالت أنجيلا لهم آنذاك إنهم في طليعة الثورة وأنهم مُحَقَّقون في مقاومة المؤامرة العميقة ضدهم على حد قولها.

وفي أثناء تلك الفترة بدأ سكان جونز تاون إجراء تدريبات تدعى الليالي البيضاء كانوا يتدربون فيها على الانتحار الجماعي.

وبناءً على طلب من أفراد عائلاتهم المقلقين في الولايات المتحدة نظم عضو الكونغرس الأمريكي ليو رايان وفداً من الصحافيين وأشخاص آخرين للذهاب إلى جونز تاون من أجل تقصي الحقائق.

وبالفعل وصل الوفد إلى جونز تاون في 17 نوفمبر/تشرين الثاني من عام 1978 وتلقّى استقبالاً لطيفاً من القس الأمريكي جيم جونز

لكن الزيارة سرعان ما انتهت في اليوم التالي بعدما حاول أحد أعضاء مجتمع الكنيسة طعن رايان. فعاد الوفد إلى المطار بصحبة 12 شخصاً من السكان طلبوا مغادرة مجتمع الكنيسة ورافقهم بعض نواب جونز الميظطين. لكن أعضاء الوفد لم يغادروا المنطقة فبينما كانوا يستقلون الطائرات أطلق مرافقوهم النيران عليهم. فأردوا رايان قتيلاً وأطلقوا على جثته وابلاً من الرصاص لضمان موته وقتلوا أربعة آخرين من بينهم اثنان من المصورين صوروا الهجوم قبل مقتلهما. ثم ركض الناجون الجرحى أو جروا أنفسهم إلى الغابة وهم ينزفون. (يذكر أن جاكى سباير التي كانت إحدى معاونات رايان نجت من الموت بعد إصابتها بخمس طلقات نارية وهي الآن عضوة في الكونغرس تمثل الدائرة الرابعة عشرة في ولاية كاليفورنيا).

الليلة البيضاء الأخيرة

وفي جونز تاون أعلن القس الأمريكي جيم جونز أن الوقت قد حان لأداء الليلة البيضاء الأخيرة. ولقمع المعارضة قال للسكان إن رايان قتل بالفعل مما يندب بهلاكهم ويجعل الانتحار الثوري هو النتيجة الوحيدة الممكنة. فاصطف أفراد جونز تاون بعضهم متقبلاً الوضع بهدوء والآخرين مرغمين على الأرجح في طوابير لتلقي أكواب من الميوايد ومحاقن. وقد سُم الأطفال أولاً (تجاوز عددهم 300 طفل) ويمكن سماع بكاء ونحيب على الأشرطة الصوتية الخاصة بالسكان التي حصل عليها مكتب التحقيقات الفيدرالية لاحقاً. حوالي 300 طفل كانوا من بين الضحايا وعندما وصلت قوات غيانا إلى جونز تاون في صباح اليوم التالي اكتشفت مشهداً فظيعاً صامتاً مليئاً بالجثث كأن الزمن توقف عنده. وظهرت قلة من الناجين معظمهم أشخاص اختبأوا في أثناء التسميم. واستيقظت امرأة عجوز كانت دائمة طوال هذه المحنة لتكتشف أن الجميع قد ماتوا. وعثر على جثة جونز مُصابةً بطلق ناري يبدو أنه أطلقه على نفسه.

..وهناك من يصر على أنهم لم يكونوا مغفلين

كان من بين الصحافيين الذين نجوا من هجوم السكان عند مهبط الطائرات تيم ريتزمان الصحافي في صحيفة Examiner Francisco San الأمريكية والذي نجا بعد إصابته بجراح نجمت عن رصاصتين وألف كتاب Raven: The Untold Story of Jim Jones and His People الذي ما زال يعد الرواية التاريخية المفضلة لطائفة جونز.

قال ريتزمان إنه من المستحيل فصل مذهب معبد الشعوب الذي أسسه القس الأمريكي جيم جونز عن سياقها السياسي والاجتماعي. وذكر في كتابه: كانت طائفة معبد الشعوب مثل المجتمعات والطوائف الدينية والكنائس والحركات الاجتماعية بديلاً للنظام الاجتماعي المراسخ وأمة قائمة بذاتها.

فأفراد مجتمع معبد الشعوب الذي كنت أعرفه لم يكونوا ماز وخيين ولما مغفلين ومن ثم فالأعضاء الذين قدموا سنوات من العمل ومدخرات حياتهم ومنازلهم وأطفالهم بل وحياتهم الخاصة في بعض الحالات كانوا يحصلون على شيء ما في المقابل. وأضاف ريتزمان أنه كان يشعر باشمزاز حين يقول الأشخاص الغرباء عن هذا المجتمع إنهم أو أطفالهم ما كان لهم أن يكونوا أبداً بهذا الضعف وتلك الحماسة لينضموا إلى مثل هذه الجماعة. وهذا الرضا عن الذات ما هو إلا خداع لها.